

قصة عشر سنوات

في طرابلس بافريقية

بفلم محمد زمر أبو هريرة

هذا عنوان صدر به كتاب مطبوع في لندن في عام ١٨١٧ وليس عليه اسم المؤلف ، ولكن يفهم من ثانيا مقدمته أنه مجموعة خطابات كتبها آنسة انجليزية ، هي أخت زوجة قنصل إنجلترا بطرابلس ما بين سنتي ١٧٨٣-١٧٩٣ ، وهو (المستر تكلي) . وكانت الآسة تبعث بخطاباتها على ما يلوح إلى بعض أقربائها أو أصدقائها المقيمين في ليثورنيا بايطاليا ، ولنا بديل تحقيق شخصية المؤلفة ولا إلى من أرسلت تلك الخطابات . فالذي يعيننا منها أنها كانت تسجل في خطاباتها أمورا شهدتها أو أخبأرا سمعتها ، فهي بالنسبة إلينا راوية تلقى أحاديثها ضوءا على أحوال طرابلس عندما كتبت هذه الخطابات في مدة إقامتها بها .

والخطابات لا تذكر شيئا بل لا تكاد تشير إلى شيء من الحوادث الكبرى التي وقعت في أوروبا أو خارج ليبيا ، مع خطورة ما وقع هناك من الأحداث في تلك السنوات التي شهدت ثورة فرنسا الكبرى . وشهدت أول عهد التحرير بأمريكا ، فالكتابة إنما تهتم بالمشاهد التي ترى فيها ما يثير الدهشة في أصحابها الذين تبعث إليهم خطاباتها ، أو التي تراها على الأقل بعيدة عن تجربتهم المعتادة ، كما يفعل كل من يزور بلادا ذات ثقافة مختلفة عن ثقافته ، فكل ما تقصده من الأفاصيص ، وكل ما تصفه من المناظر يتميز بطابع التعجب وإن لم نضعه صراحة في قالب التعجب ، ولا أحسبها أرادت لتلك الخطابات أن تنشر يوما من الأيام ، فإن أسلوب كتابتها إنما هو أسلوب الصديق الذي يحدث صديقه بغير تكلف ، كأنما هو يناجيه في جلسة خاصة يتبادلان فيها أطراف الحديث . وهذه الخاصة التي تتميز بها الخطابات تجعلنا بعيدين عن التحفظ فيما نأخذه عنها ، فإنها لا تعتمد فيها أن تستخلص نتائج أو تدعو إلى دعاية خاصة ، بعكس ما نعهده في كثيرين من الكتاب الأوروبيين الآخرين

الذين كتبوا عن الشرق العربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، مثل (فولتى) و (سافارى) و (سونبى) ؛ فهؤلاء الأخيرين كانوا يكتبون تقارير سياسية يريدون أن يتخلص الساسة منها أخبارا معينة ترشدهم إلى السياسة التي ينتهجونها قبل بلاد هذا الشرق العربي ، ولهذا فإنهم يعتمدون في كثير من الأحوال أن يصوروا الحقائق تصويرا يلائم الأغراض التي يقصد إليها الساسة الذين يخدمونهم . وأما هذه الآتية فلأنها تقول ما تراه ، وتعلق عليه تعنيقا ساذجا يتم عن بساطة بريئة ، وقد تكون تعليقاتها قاسية أو لاذعة ، ولكنها في كل الأحوال لا تتم عن غاية خفية من وراءها ، وكثيرا ما تظهر جهلها بالتاريخ إذا هي تعرضت إلى ذكر بعض الحوادث الماضية التي لم تراها بعينها ، كما أنها تكثر التخليط إذا ما تحدثت عن البلاد العربية الأخرى كصغر مثلا .

ولهذا كان خير ما نستمده من تلك الخطابات ما يتحدث فيه عن طرابلس وما حولها ، أو عن النقباع الأخرى التي شهدتها في جولاها .

وكانت طرابلس في هذه الحقبة دولة ذات سلطان واسع يمتد إلى برقة وفزان وإلى برنو وأكناف نيجيريا . وكان لباشا طرابلس سيادة محترمة في قلب القارة إلى ما يقرب من إقليم النيل الأعلى ، ولولا أن الباشا كان يتبع سلطان الدولة العثمانية أسما لكان أجتزأ بأن يسمى ملكا ، ووجه الشبه عظيم بين نشأة هذه الدولة الطرابلسية وبين نشأة دولة محمد علي باشا كما سنذكر بعد قليل ، بل أن منشىء هذه الدولة كان على أغلب الظن هو المثال الذي ترسم محمد علي خطواته في إنشاء دولته ، فحديث الكتابة عن طرابلس إنما يقصد به كل البلاد التي تتكون منها الدولة الليبية في الوقت الحاضر ، بل تزيد عليها بامتدادها إلى إقليم برنو الذي يقع اليوم في أملاك فرنسا ، فيما نسميه بالسودان الغربي أو الفرنسي .

وجد هذه الأسرة أحمد باشا الترماني الذي استولى على الحكم في سنة ١٧١١ م . وان كانت الكتابة تذكر أنه بدأ حكمه في سنة ١٧١٤ م . وقد كان في أول أمره أحد الضباط في الجيش التركي ، وتقول الكتابة إنه ترقى حتى صار حاكما

على مدينة طرابلس ؛ ولكنه كان على كل حال من كبار الضباط في الجيش التركي ، وكانت له علاقات صهر ببعض المتنافسين على الحكم في وقته ، وكان يشبه محمد علي ، أو بقول أدق كان محمد علي يشبهه ؛ في أنهما تباعدا عن المنازعات النائرة بين زعماء الجيش الطامعين في تول الحكم ، وما زالا حتى اعتقد الأعيان وجمهور الضباط أنهما من أهل الخير فرشحوهما للولاية .

وهكذا اختار الديوان أحمد باشا ليكون واليا على البلاد ، غير أن أحمد باشا لم يستقر في الولاية عندما اختاره الديوان ، لأن الباشا القائم كان لا يزال باقيا في البلاد ، ولأن السلطان العثماني لم يوافق بعد على القرار الذي اتخذته الديوان ، فأما الباشا القائم فقد حاربه أحمد باشا حتى اضطره للانتحار ، وأما السلطان العثماني فإنه أرسل بعد قليل باشا من عنده ليتولى حكم البلاد ، فوقف له أحمد باشا وهزمه واضطره للرجوع إلى قسطنطينية ، وتذكر الكاتبة أن أحمد باشا تبنى ولد الباشا الذي كان قبله ، ولعله قد فعل ذلك وإن لم تفكر كتب التاريخ شيئا عن ذلك ، وليس بالبعيد أن يكون أحمد باشا قد تبنى ولد الباشا المنتحر عندما بقي بغير عائل بعد انتحار أبيه ، والكاتبة تتحدث عن ذلك أتولد فيها بعد حديثا طويلا منعرض لشيء منته فيها بعد .

ومهما يكن الأمر فقد اضطر السلطان العثماني إلى الاعتراف بأحمد باشا واليا على طرابلس بعد أن عجز عن القضاء عليه ، وهذا هو ما فعله السلطان العثماني الآخر بعد قرن من الزمان عندما اعترف بمحمد علي باشا واليا على مصر بعد أن عجز عن القضاء عليه .

ولا يقف الشبه بين أحمد باشا انقرمانلي ومحمد علي باشا عند ذلك الحد ، بل تكاد سيرتهما في الحكم تكون واحدة ، فقد استمر أحمد باشا في حكمه ثلاث سنوات يحاول أن يدعم سلطانه ، وما كان ليستقر في الحكم وجنود الجيش التركي وضباطهم راصدون له يتربصون به الفرص ، وكان مسلكه في التخلص من هؤلاء التبعين هو التودج الذي احتذاه محمد علي فيما بعد في القضاء على أمراء المماليك بمصر ، فإنه أعد وليمة في السراي - مقر الحكم - ودعا إليها كبار القواد والأعيان في الجيش ، وهناك كان قد أعد أعوانه

ومع كل منهم وتر قوس ليخنفوا به من يبرهنهم من هؤلاء الضيوف ،
فأخذهم الأعوان واحدا واحدا ، وألقوا بهم في جب عميق ما يزال إلى اليوم
باقيا في القصر تحيط به رهبة شديدة من أرواح المئات الذين قذفوا فيه .

وبعد ذلك تتبع أعوانه جنود الجيش التركي في المدينة حتى أفنهم
إلا من استطاع المروب بين أهل البلاد ، وهذا مثل ما فعل محمد علي
عندما تتبع المماليك في القاهرة قتل وأسرا بعد أن قضى على زعمائهم
في مذبح القلعة ..

ولما استقر له الأمر بعد الخلاص من القوة الخفية التي كانت تهدده
بدأ يكون دولته وجعل مقرها في السراي القديمة التي ما تزال مطلة على
البحر الأبيض في مدخل المدينة القديمة ، ويسمى أهل طرابلس في هذه الأيام
بالسراي الحمراء . وما أجدرها بهذا الاسم الذي لا نعرف بالدقة السبب
في إطلاق ذلك الوصف عليها - ؛ ولم يفس - كما لم يفس - محمد علي باشا -
أن يدعم حكمه بعد أن استقر فيه بإرسال أعظم الهدايا إلى السلطان العثماني ،
واتحاف أتباعه وحاشيته بكثير من العطايا .

والكتابة تصف الباشا الذي كان يحكم البلاد في وقت إقامتها بطرابلس
وصف العارف الخبير ، فقد كانت تعرفه وتعرف أسرته ، وكثيرا ما كانت
تقيم في السراي ، وتحضر حفلاتها في مناسبات الأفراح والمآتم ، وهي تصفه
متأثرة بهذه المودة التي كانت تعملها له ولأهله ، فهي تتحدث عن عبده
وسعة أفقه ، وعن رحمته واعتداله وأكبر ما كان يعجبها فيه التسامح مع الأوربيين
ومع اليهود الذين كانوا وما يزالون يقبضون على أزمة المال والتجارة
في طرابلس ، وتصف لنا في أسلوب بسيط ممتع كيف كان يتخذ لنفسه
صغيرة من عجائر اليهود اسمها «استر» وكيف كانت تذهب إلى السراي
كل يوم راكبة على حمار يحملها عليه خدم القصر الذين يرافقونها من بيوتها ،
إذ كانت شديدة السمن لا تستطيع أن تتركب إلا إذا تعاون على حملها بعض
الأتباع .

وكان الباشا كما تقول انكاتبية بأقنص إليها ولا يشعر بالأمن إلا إذا جلست إلى جانبته تحدثة حتى ينام على هدهدة قصصها ؛ مسكية استر ، لقد كان القدر نجماً لها نهاية لم تحلم بها عندما كانت تعبت بشعر الباشا وهي تقصص عليه قصصها ، فإنها كانت من أولى ضحايا الاضطهاد عندما تغيرت الحال وعزل الباشا في آخر حياته كما سيأتي ذكره .

وانكاتبية تصف محافظة الباشا على أبهة الملك ورسومه التي عنى جده أحد باشا بابتكارها لتكون طابعاً لدولته ، فكل مظاهر الحياة في القصر وما يحيه الباشا من احتفالات بحرى على سنن معروفة محترمة ، سواء أكانت في الملابس الرسمية أو في الحركات والاعاءات . ويظهر من وصفها أن على باشا كان يشبه في كثير من الوجوه خديوى مصر إسماعيل ، والشبه بينهما يزداد عندما ترى أن آخرتهما كانت واحدة ، فقد اضطربت أحوالهما اضطراباً شديداً أدى إلى عزلهما ، ولم تلبث البلاد بعد ذلك أن تورطت في منازعات مع الدول الأجنبية أدت آخر الأمر إلى زوال المجد الذى كانا يحرصان على إعلاء صرحه . وكانت دولة طرابلس مقسمة إلى أقاليم يحكم كلا منها حاكم يلقب (بيه) ، فهناك بيه بنغازى ، وبيه درنه ، وبيه طرابلس ، كما أن هناك رؤساء آخرون لندواته والقرى .

وتتكون أسرة على باشا من زوجته (للأحلامه) وأبناء ثلاثة وبنات ، ولكل منهم مكان في أحاديث الكاتبة : فأما البنات فقد كان الباشا على ما يظهر لا يجد لمن انكفاء بين أهل البلاد ، فكان يختار لمن أزواجه يصنعهم بنفسه . فقد زوّج الكبرى من رجل أصله إيطالى من (نابولى) ثم أسلم وسمى نفسه الحاج مراد ، وألحقه الباشا بخدمته . فعهد إليه بإدارة الجمارك وهي من أكبر وظائف الدولة في ذلك الوقت . وتقول الكاتبة عنه أنه كان لا قيمة له في عين زوجته ، فكانت تسمى معامته كأنه خادم ، ولكنه كان لا يعبأ بذلك لما يناله من الجاه والغنى من وراء زواجه بها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الحاج مراد عمل على تدعيم صلاته بأسرة الباشا بأن زوّج ابن أخيه من إحدى بنات الباشا الأخريات .

وأما أولاد الباشا فالكتابة تصفهم واحداً واحداً حتى لتكاد صورة كل منهم تظهر واضحة من ثانياً سطورها ، فأكبرهم سيدى حسن الأتقي ، وهو أجل الأمراء صورة وأعلام هيبية ، وهو فارس شجاع يجيد ركوب الخيل ويسبق دائماً في مباريات السباق ، وكان إذا ركب يسير وراءه مماليكه الذين بلغ عددهم مائتي مملوك يلبسون الخليل الثمينة ويركبون الخيول الأصيلة ذات السروج المشلاة بالذهب والفضة ، وكانت له شارة تميزه وهى (الطوخ) ، وهى شارة الرياسة تشبه ذيل الحصان ، وكان للباشا شارة أكبر منها ، وهى الأطواخ الثلاثة التى تحمل أمامه فى الموكب إذا ركب فى احتفال رسمى ، وبما يذكر هنا أن محمد على باشا كان هو الآخر صاحب أطواخ ثلاثة ، والسلطان العثمانى وحده هو الذى يحملها على عطاء دولته .

وكان الأمير حسن يريد الزواج من ابنة (عبد الله بك) شاه القصر ، وهى فتاة كانت معروفة بحبها وكاملها ولكنها ماتت قبل أن يتزوج منها .

والكتابة تتحدث عن عبد الله بك شاه القصر أحاديث طويلة ، وتقول إنه هو الطفل الصغير الذى تبناه منشىء الأسرة بعد أن حرم من والده الباشا السابق ، وقد مرت الإشارة إلى ذلك . وكان (عبد الله بيه) عند ذلك شيخاً نيف على السبعين ، ولكن الباشا كان يعهد إليه بوظيفة شاه القصر ، وهو المتصرف فى شئون الأتباع والحشم ولا يجرؤ على الباشا أحد غيره . وقد استمر الشيخ مكرماً حتى لحقت به النكبة آخراً الأمر عندما اضطربت الأحوال بالأسرة الحاكمة كما سأتى ذكره .

وتذكر الكتابة بعض قصص تدل على سمو نفس الأمير حسن ومروءته ، ومن أمثال ذلك أنه كان مرة يحتفل بتكريم طائفة من ضباط البحرية الإنجليزية وجنودها بمناسبة زيارة بعض قطع الأسطول البريطانى بطرابلس ، وكان الاحتفال فى حديقة الأمير خارج المدينة حيث أقيمت مباريات السباق بين الفرسان ، ومدت موائد الطعام على طريقة البلاد ، وأراد أحد الأجلاف من البحارة أن يمزح ، فاقتطف برتقالة من فوق شجرتها ، وقذف بها إلى عمامة

الأمير فأطارها . وهاج ممالك الأمير وهووا بالبحار يريدون أن يقتلوه ، فسارع الأمير إلى البحار فأجاره منهم : وتغاضى عن الاسماء التي لحقت به ، وكان ظريفا عندما قابل اعتذار الضباط بساحته القياضة .

والكاتبه ترسم صورة أخرى للأمير الأوسط سيدى حسن ، الذى كان مثالا لابن الملوك المودع الذى يهتم بمظاهر الأبهة ويحب عيشة النعيم ، ولا يجد فى الملك بعد ذلك ما يهجه من الأمور العامة أو الخاصة .

وأما سيدى يوسف الأصغر فالكاتبه تصفه بأنه شاب متهور عنيذ ، مخادع ، وتذكر عنه بعض قصص تدل على أنه كان فنى خليعاً ، إذ قالت عنه أنه كان يتدسس إلى حفلات النساء متخفياً كامرأة ، وكاد يكشف أمره فى إحدى المغامرات لولا أن تسلل بمساعدة بعض صديقائه التثيلات . بل لقد كان لا يتورع كما تقول الكاتبه أن يراود بعض نساء أسرته ولا يعبأ بما قد يجره ذلك من الفضيحة ، وكان شديد الحسد لأخيه الأكبر حسن بصفة خاصة ، ويؤخذ من ثابا ما تقوله الكاتبه أنه كان يضمر رغبة أئيمة لزوجة أخيه .

وكان الخلاف يندب بين الأخوين فى كثير من المواقف ، وكان الأمير حسن فى كل مرة يتغاضى عنه حتى صار ما بينهما عداوة مستقرة ، وجاوب الباشا الشيخ أن يصلح بينهما ، فكان يوسف يخضع فى المظاهر أمام أبيه ثم يعود إلى دأبه من المشاحنة بعد قليل ؛ وكان له حرس يشبه حرس أخيه حسن ، ولكنه كان فرق هذا يتقرب من ذوبان القبائل وانحدرين من شيوخها ، وقد آل الأمر بينه وبين أخيه إلى مصادمة دموية أدت إلى قتل سيدى حسن كما سنذكر فيما بعد .

وللكاتبه نظرات نافذة فيما تراه ، وهى تردد فى خطاباتها مجموعة من الملاحظات والأقاصيص تدل على ذكاء طبيعى لا تكلف فيه .

وكان من أول ما كتبت عنه وصف استقبالها عندهم أتت هى وأسرتهى الى طرابلس أول مرة . فقد كتبت فى خطابها الذى بعثت به فى ٣ يوليه سنة ١٧١٣ أنها وجدت فى استقبال أسرتهى جميعاً من الوطنين يلبس بعضهم

الملابس الحريرية والتطيفة ذات الفراء الثمينة ، وعليهم من الخلى والجواهر
ما يبهر الأنظار ، ومن ورائهم جمع من الأثماء الذين لا لباس لهم سوى قطع
سمراء من (انقطن ؟) - ولا شك أنها تقصد الصوف وهو ما يلبسه
أهل البلاد - أو ما هو أصنف من ذلك وأحقر مما يشبه الملاء القذرة المهلهلة ،
فكان الفرق بين الخالين عاملا على اظهار أبهة العطاء المستقبين وإبراز
بريق ملابسهم .

وليست الكاتبة هي الوحيدة في نظرتها هذه ، فقد سبق لي أن قرأت
مثل هذا الوصف في كتاب صحفى إنجليزى عنوانه (من قبرص إلى الكاب)
يصف فيه الكاتب احتفال الخديو إسماعيل بافتتاح قناة السويس إذ كان الكاتب
حاضرا فيه . فقال :

” وجلسنا على موائد فاخرة ، فيها أنواع من المطاعم اللذيذة
والأشربة الفاخرة ، والفواكه ، مما قد تكفى فضلات مائدة
واحدة منها لإطعام أهل القرى الكثيرة الجائعة التى حولنا “
وليس أجدد بأن يهز النفس من كلمة النقد الحادة إذا صدق قائلها .

وكان مما استرعى نظر الكاتبة لأول وهلة نمط الحياة التى يسير الناس عليها
فى وقتها ، وإن كانت المناظر التى تصفها مألوفة عندما معاشر أهل البلاد
العربية ، فهى تقف طويلا عند مراسم الصلاة ، واحتفالات الزواج ، والمآتم ،
وتقاليد رمضان ، والمسجراتى ، وزيارات الأعياد ، وولائم المواسم ، وهى تصف
دقائق ملابس الرجال والنساء ، كما تصف الأمراق الضيقة المصقفة ، وسوق
الرقيق ، وسوى ذلك مما كان ولا يزال الكثير منه معروفا عندنا .

وهى تتحدث طويلا عن حجاب النساء ، ذلك الحجاب الكثيف المضروب
على النساء فى طرابلس ، وهو لا يكاد يشبه حجابا آخر فى بلد عربى آخر ،
وما تزال طرابلس محفظة بهذا التقليد رغم التطور الكبير الذى طرأ على حياتها
فى نواح كثيرة أخرى ، فالطرابلسيات ما يزلن يلبسن (البركان) عند
خروجهن ، وقلما يخرجن من منازلهن ، والبركان غطاء يلف الجسم كله
من أعلاه وأدناه ، فلا تنظر المرأة طريقها إلا من فتحة ضيقة تفتحها

بأصابعها أمام إحدى عينيها ، والحجاب في المنازل ما يزال على عهد
كما رأته الكاتبة أو يكاد ، فالمرأة لا تظهر لرجل وإن كان من أمرتها ،
وكانت في زمن الكاتبة لا تظهر لمحارمها .

وكان المتعارف عليه - كما تقول الكاتبة - أن الرجل لا يدخل إلى مكان
الحريم في بيته إذا كان في البيت ضيفة ، وعلامة وجود الضيفة أن تضع
ربة البيت (حذاء) عند باب الحريم فلا يتعدى رجل ذلك الباب ، وتقول
الكاتبة أيضا إن ذلك التقليد كان يساء استخدامه من فوات النوايا البيثة
من النساء ، كما كان يتخذ وسيلة لتلمس ذوى النوايا السيئة من الرجال
بين النساء بأن يلبس زهن ، وقد ذكرت من ذلك أمثلة من بينها يوصف
ابن الباشا الذي كان كثيرا ما يندس في وسط حفلات النساء في القصر
أو في الأسر الكبرى وهو في ملابس امرأة .

وإذا كانت الكاتبة قد حصرت أكثرهما في مدينة طرابلس ، وفي وصف
ما كان يدور في دائرة الطبقة العليا من المجتمع خاصة فلها مع ذلك ذكرت
كثيرا من الأمور المتصلة بحياة الناس خارج المدينة فهي تتحدث عن الأعراب
وأزيائهم وعاداتهم وطرق معيشتهم في بيوت الشعر المتقلة مع فصول السنة .

ومما جاء في وصفها للعرب إعجابها بما سمعت عن مروءاتهم ومخافتهم
على الشرف بحسب تقاليدهم ، وهي تذكر قصتين تستحقان أن تبيدهما هنا :

فالأولى تنصف مروءة العرب وشهامتهم ، إذ كان بين اثنين من مشايخ
القبائل عداوة قديمة وثأر بدماء ، واتفق أن كان أحدهما في رحلة طويلة وعمرح
على أحد البيوت يستضيف صاحبها ليلته . فأكرم صاحب البيت وفادة
ضيفه ، وجلس في الليل يسامره فظهر من ثانيا الحديث أن الضيف غريم
صاحب البيت ، فلم ينزل صاحب الدار عن منة الكرم المتوارثه ، وأنى
إلا أن يستمر على إكرام ضيفه حتى طلع الصباح ، فصرف عدوه بعد
أن أعطاه فرسا سريعة ، وقال له : « ارجع بنفسك على هذه الفرس ، وسألحق
بك ، فإذا أحرقتك أخذت منك ثأري » وقد استطاع الضيف أن ينجو
بفضل تلك الفرس السريعة ، فلم يستطع غريمه أن يلدكه .

وتذكر الكاتبة قصة أخرى تُعزى إلى أحد المرابطين وهم المشايخ الذين كانوا يجمعون بين الزهد والقرومية ، وإن كان هذا القرب يطلق اليوم على رجل الدين المعتكف عن الدنيا ، وكان لبعض هؤلاء مكانة كبيرة عند العامة والخاصة ، ولا يزال لقبورهم قداسة عند الناس إلى اليوم ، ومن هؤلاء سيدي (الصيد) وكلمة الصيد معناها عندهم الأسد ؛ وكان لقبره في زمن علي باشا مكانة كريمة حتى أن أبناء الباشا عندما كانوا مختلفون كان الذي يريد يصلح بينهم يقترح عليهم أن يذهبوا إلى ضريح (الصيد) ليحلفوا عبده الخمين على الأبخون أحدهم الآخر ، وكان ضريح هذا المرابط يعد ملجأ للخائف بلوذه من يخشى الاعتداء من عنده قوى .

وتذكر الكاتبة عن صاحب هذا الضريح أنه كان يعيش في أيام حكم أحمد باشا مؤسس الأسرة القرمانلية ، فخرج الباشا ذات يوم في بعض رحلاته خارج المدينة فمر ببيت هذا الشيخ ، ورأى ابنته وكانت فتاة جميلة فخطبها إلى أبيها ، ولم يسع الشيخ إلا أن يقبل كارها ، ولكن الباشا عندما حل الفتاة ليتزوجها وأراد أن يدخل بها وجدها ميتة ، فلما سأل أباه عن سبب موتها قال إنها قد آثرت أن تأخذ السم تموت على أن تكون زوجة له .

وذلك في نظر الكاتبة دليل على أن الباشا لم يكن في نظر الفتاة العربية وأبها كفتى لأن يكون زوجها لها .

ونستطيع أن نستخلص من وصف الكاتبة لطرابلس وما حولها ، ومن أحاديثها عن إقليم برقة والجبل الأخضر أن البلاد لم تتغير في مجموعها إلا قليلا عما كانت عليه في آخر القرن الثامن عشر . اللهم إلا مدينة طرابلس نفسها التي أضاف إليها الإيطاليون إضافات جعلت منها مدينة جديدة .

فالكتابة تصف سهل طرابلس الفيحاء وأرضها الخصبة التي تروى من الآبار وزراعة القمح والشعير في موسم الأمطار وتحدث عن المراعي التي تجعل الأرض مثل بساط أخضر مزدهر إذا كانت الأمطار غزيرة ، وتصف إقليم جبل غربان في جنوب طرابلس والمنازل التي ينحها أهل

ذلك الجبل في أعماق الصخر . ثم هي تتحدث عن الآثار التي خلفها الروم في صبراته وفي لبده وتصف باب اورليان ، ثم تتحول إلى برقة وجبلها الأخضر والآثار العظيمة التي في مدينة (قبرين) القديمة ، التي يطلق اليوم عليها اسم (شحات) ، وأنه لجدير بنا معاشر المصريين أن نعرف هذه البلاد التي تجاورنا ، فإن أكثرنا لا يعرف عنها إلا أنها امتداد للصحراء الغربية ، مع أنها بلاد جديرة بأن تكون من أكثر جهات الأرض عمراناً ، وفيها إقليم الجبل الأخضر في برقة ، وهو لا يقل عن لبنان في روعة مناظره ، لولا أن لبنان كان موقع خلعته أبنائه منذ أقدم الأزمان ، وما يزال الجبل الأخضر في حاجة إلى خدمة أبنائه ، ففيه من الأرض الحصينة والعيون الجارية والأودية النظرة والأشجار الدائمة الخضرة ما يجعله أهلاً لأن يكون مرتعاً خصباً ومزرعة ذات أكل وثمر ، ومصيفاً من أجمل المصايف حول البحر الأبيض المتوسط .

وأفة هذه البلاد في الوقت الحاضر هي آفها في الزمن القديم ، وذلك قلة الأمطار وعدم انتظامها ، ففي أشهر الجفاف تكون مشكلة المياه مشكلة حياة أو موت في كثير من الجهات ، وقد اعتاد الناس أن يخزنوا المياه في حفر عميقة يسمونها (الماجل) أو كما يقولون أحياناً (الماجن) ، وذلك حيث لا توجد الآبار ، وهذه المياه المخزونة عرضة للتلوث بجراثيم الأمراض وأنواع الديدان .

وحديث الكاتبة عن الآثار القديمة حديث طريف ، فإن سواحل هذه البلاد كانت منذ القدم متصلة بالمدينت المحيطة بها ، فتدخل فيها الفيقيون قديماً ، وأنشأوا مدينتي (صبراتة) وأويا - وهي طرابلس القديمة - ثم نزل اليونان في سواحل برقة ولهم هناك آثار واسعة أهمها في مدينة شحات (قبرين) ، ولما جاء الروم واستولوا على البلاد من شرقها إلى غربها أضاقوا إلى تلك المدن القديمة إضافات جعلتها تتخذ صورة جديدة ، كما أنهم أنشأوا مدينة كاملة وهي المعروفة اليوم باسم (لبة) - واسمها الروماني (لبش مانيا) موطن أحد أباطرة الرومان ، وهو (سيتموس سيفروموس) ، واسم طرابلس ومعناه المدن الثلاث ليس إلا وصفاً لمركز إقليم المدن الثلاث القديمة : وهي صبراتة

وأوبا ولبده ، كما أن إقليم برقه كان يطلق عليه اسم بنطا بولس ومعناها
المدن الخمس ، نسبة إلى المدن المبعثرة على السواحل ، وفي الجبل الأخضر
وعدد أكبرها خمسة ، وأهمها : برنيق ، بنغازي ، وبارقه ، المرح ،
وفزين (شحات) .

ومن أهم مشاهد هذه الآثار القديمة بقايا المسرحين الرومانيين القائمين
إلى اليوم في صبراتة ولبده ، حيث كان الرومان يشهدون المصارعات
أو التثيليات أو مناظر فتك الوحوش بالمسيحيين ، وملجأها مبنية بالحجر
في نصف دائرة ، وفيها مقصورات للأعيان والحكام وتنعق مقاعدنا جميعا
لبضعة ألوف ، وفي المدن بقايا العمران القديم من أسواق عامة ، ومرافق
ومعابد ، وما تزال أجزاء كبيرة منها تحت الرمال تنتظر العلماء ، وللأموال
للكشف عن أسرار تاريخية كثيرة مجهولة .

ولا تكفي الكتابة بوصف الآثار ، بل هي نصف النام والأشياء ، فترسم
صوراً لنساء الأعراب اللاتي يحملن وجوههن بالوشم ، وتصف ملامح وجوههن
وتقول إن فيهن جمالا لولا ما يعلوهن من آثار الرمال والشمس ، وتحدث
عن شرب الرجال لنوع من المسكر اسمه (اللافبي) وهو ما يزال إلى اليوم
محبوبا عند طائفة من أهل طرابلس ، ويستخرج اللافبي من النخل بامتزاج
العصير من أسفل قمته الخضراء ، وهو إذا شرب حلوا كان لذيقاً ولم يسكر ،
ولكنه شديد الإسكار إذا تخمر ، والنخلة التي يستزف منها اللافبي تمكث
ثلاث سنوات بغير إثمار .

وكان مركز الدولة في أيام الكتابة خطيراً برغم ما يحيط بالحكام والأعيان
من مظاهر الأبهة والمجد ، فقد كان على باشا محاطا بعداوات كثيرة من داخل
بلاده ومن خارجها ، فن الداخل كانت القبائل في اضطراب مستمر ، وزاد
اضطرابها عندما وقع الخلاف بين أبناء الباشا الثالث ، واستفحل أمره كما
سيأتي ذكره ، وكانت سياسة الباشا قائمة على أن يضرب بعض الشيوخ وقيادتهم
ببعض ، وقد نجح في أول الأمر نجاحاً ظاهراً في هذه السياسة ، ولكن الأمر
انتهى بعد ذلك إلى ما يكاد يشبه الفوضى ، فإن حل المشكلات يوماً فيوماً

لم يكن قائما على مياسة مرسومة في الحكم ، ولا لوم على الباشا في ذلك ، فإن الظروف المحيطة به كانت لا تتيح له فرصة الحكم المطلق الذي تمكن من فرضه محمد علي في مصر .

ودولة طرابلس واسعة الأطراف ، صعبة المواصلات ، وتمكنها قبائل متفرقة ، لكل منها حكم شبه مستقل ، وما تزال هذه مشكلة قائمة إلى اليوم ، وإن كانت أقل حدة عما كانت عليه في العهد القرمانلي .

وأما من الخارج فقد كان لدولة طرابلس أعداء كثيرون في اندول المحيط بها من تجاه جنوب أوروبا ، كما كان لها مصادمات أخرى مع الدول البحرية كافة ، وكانت طرابلس منذ أوائل القرن السادس تملك قوة بحرية ذات سطوة عظيمة ، وما يزال بمدينة طرابلس مسجد (درغوث) أكبر قواد البحر الأتراك ، وكان واليا على طرابلس في منتصف القرن السادس عشر ، وقدمت هذا القائد البحري في أثناء حصار العثمانيين لجزيرة مالطة .

واستمرت قوة طرابلس البحرية إلى زمن الدولة القرمانلية ، فاهتم منشأها أحمد باشا بزيادتها حتى أصبحت لها السيادة على سواحل شمال إفريقيا ، وكانت المصادمات مستمرة بين بحارة طرابلس وبحارة نابلي وأسبانيا ، بل بينهم وبين بحارة إنجلترا والدول الشمالية .

وكانت الدول البحرية تدفع للحكومة الطرابلسية أتوات سنوية نظير عدم التعرض ل سفنها ، ولكن قواد السفن كانوا يجدون في الإغارة على سفن التجارة معانم كثيرة تشارك فيها الدولة بنصيب وافر ، فأدى الأمر إلى تطور جديد عندما صارت هذه القوة البحرية شبه مطلقة من رقابة الدولة ، حتى اعتاد الأوروبيون يسمون أصحابها (بالقراصنة) ، ومهما يكن الأمر فقد كانت هذه المصادمات من أكبر مشاغل الدولة في أيام علي باشا ، كما أنها تطورت إلى أن أصبحت كارثة في أيام ولده يوسف باشا .

ولم تقتصر المشاغل على هذه المصادمات البحرية مع دول أوروبا ، بل كانت هناك مصادمات أخرى مع الدولة المجاورة (تونس) .

وقد حضرت المؤلفة حفل إنزال إحدى السفن الحربية في ميناء طرابلس ، وكان صاحبها هو الأمير سيدي حسن ، وقد باركها الأمير بأن ربط في مقدمتها عبداً أسود ليحلب لها السعد بموته ، كما ذبح عليها كبشاً أبيض مزينا بالزهر وشرائط الحرير البيضاء .

وإلى جانب هذه المشاكل السياسية الأجنبية ، كانت الدولة العثمانية لا تفكر عن انتهاز الفرص لاسترجاع حكمها المباشر على طرابلس ، وقد حدث مراراً أن جاء أسطول تركي بقيادة (قبودان) عظيم لعله يجد فرصة لخلع الباشا واسترداد الحكم للسلطان ، على أن مركز الدولة الطرابلسية كان راسخاً من الناحية التجارية ، فقد وصفت الكاتبة نشاط تجارة القوافل مع السودان وأواسط أفريقيا ، وما كانت تأتي به من الخيرات إلى الساحل حيث يوزع على بلاد أوروبا ، ويجهى تجار طرابلس من ذلك الأموال الطائلة ، وكان من أكبر السلع التي تقوم عليها هذه التجارة - هي السلعة الانسانية - الرقيق الأسود الذي كانت أسواقه رائجة في أوروبا وأمريكا .

ومن الطريف أن الكاتبة كانت ذات يوم تتحدث إلى أحد امرأه (برنو) ، وكان إذ ذاك ضيفاً على حكومة طرابلس ، وجاء ذكر تجارة الرقيق في أثناء الحديث ، فانتصر الأمير الأسود قائلاً للكاتبة : « إن المسيحيين (أي الأوروبيين) هم الذين يتعقبون الأطفال والبنات والشبان العزل من الدفاع ، لينصيدهم بمساعدة الوثنيين من قبائل السود ، فهم المسؤولون عما في هذه التجارة من فظاعات » ، فإذا أضفنا نحن إلى ذلك أن أسواق الرقيق الفسيحة كانت في أوروبا وأمريكا أمكن أن نضم أصواتنا إلى صوت أمير برنو .

والكاتبة تستطرد في حديثها عن الرقيق فتذكر في بعض خطاباتها قصصاً عن الجوارى البيض أيضاً ، وهن من اليونانيات على الأكثر ، وبعضهن اسبانيات من سببا المصادمات البحرية ، فتذكر أمثلة منهن صرن مسلمات وتزوجن الأعيان ، أمثال السيدة الكرمة (امنانى) زوجة الحاج عبد الرحمن قنصل طرابلس في إنجلترا ، فقد حن إسلام هذه السيدة وأخلصت لزوجها إخلاصاً شديداً مع أنه كان أكبر منها سناً ، ورفضت أن تستجيب إلى دعوة أخيها عندما جاء يزورها وعرض عليها العودة معه .

وتقول الكاتبة أن الآباء اليونانيين كانوا يعنون بتربية بناتهم قاصدين أن يبعوهن إلى الأعيان ، وكانوا يعلموهن الموسيقى وتدبير المنزل والتطريز كما يزيد سرهن .

وتحمد الكاتبة للبasha أنه لم يتخذ من الجوارى سرارى - فلا هو تسرى بالسودان ولا بالجوارى البيض - ولم يتزوج سوى امرأته الثبيلة (للأحلامه) ، ودلاء معناها السيدة أو الأميرة .

ومنذ أواخر سنة ١٧٨٤ تكاد خطابات الكاتبة تدور حول وباء الطاعون الذى بدأ يهدد البلاد آتيا من قبل تونس ، وكان ذلك الوباء قد نشأ فى مصر ، ولكن الصحراء القسيحة فتمت تسريه منها إلى طرابلس ، فما أتى عام ١٧٨٥ حتى كان الوباء يعصف بالبلاد عصفاً شديداً .

والكاتبة تصف قلة عناية المسلمين بالوقاية من العدوى ، وتقول إنهم يعالجون الوباء بالأدعية والأحجبة والرقى ، ولكنها مع هذه السخرية تتعنى بشجاعتهم فى مواجهة المرض ، فكان الأوربيون واليهود يهربون إلى خارج البلاد ، أو يلقون عليهم بيوتهم ، وكان منهم من يوقد فى فناء بيته ناراً عظيمة فلا يكلمه أحد من الخارج إلا من ورائها ، وقد هرب الطبيب الوحيد الذى كان فى المدينة وهو أبطالى ، فسافر إلى مالطة . على حين تصف الكاتبة المسلمين (أى أهل البلاد) بأنهم يظهرون شجاعة ومروءة يستحقان الإعجاب : فهم يقفون الى جانب المصاب المسكين حتى يفارق الحياة وهو تحت رعايتهم - ولو كان من الأوربيين أو اليهود - وكان المرض فظيماً يقضى على المصاب فى ساعات وهو بين آلام مبرحة من الورم الذى يعترى جسمه ، وفى الساعات الأخيرة يعثره بحران ويصبح ضياعاً جنونياً ؛ وتذكر الكاتبة أن امرأة وطنية اخترعت طريقة لمعالجة المرض بأن تشق الخراج وتخرج أذاه فيشفى المريض ، وتقول إن الطبيب الايطالى الهارب عالج المرضى فى مالطة بهذه الطريقة عندما سمع عنها ، وكان يربط المشرط فى طرف عصا طويلة ، ويستعين فى عملية بعلمة مكبرة مقربة ؛ حتى لا يقترب من المريض .

وخفت وطأة الوباء في آخر سنة ١٧٨٥ بعد أن حصد من الناس عدداً كبيراً. تقدره الكاتبة بثلثي المسلمين ، ونصف اليهود ، وتسعة أعيان الأوربيين . وتذكر الكاتبة بعض قصص ساخرة عن سلوك اليهود في وقت الوباء ، فقالت إنهم كانوا يتجرون في الملابس التي كان يستخلمها المرضى عندما يقذفها أهلهم ، فكان اليهود يرسلون تلك الملابس لتباع خارج البلاد ، وقالت كذلك إنه عندما اشتد الوباء وقلت الأقوات حتى حدثت مجاعة في المدينة بعث الناس في طلب القمح من إيطاليا ، وفيها هم ينتظرون السفينة التي تحمل القمح جاءت سفينة عملة بترايبث الموتى ، استعجل أحد اليهود حملها على السفينة بدلا من القمح ، لأن أسواق التوايبث كانت في ذلك الوقت رابحة وسعرها مرتفع .

وتذكر الكاتبة بين حين وآخر من بين أحاديثها عن الوباء أموراً أخرى خطيرة حول ما يدور في القصر من مؤامرات وخلافات عائلية ، وكانت تعرف الكثير من أسرار القصر التي تخفى عادة عن جمهور الناس ، وهي صريحة في هذه الأحاديث ، فلا تخفى شيئا وإن كان ذكره محرجا ، فهي تذكر مثلا أن حفيدا لباشا (ابن بنته) راود امرأة عمه سيدي أحمد عن نفسها، ونشأت عن ذلك فضيحة أدت إلى خروج ابنة الباشا من القصر وانفرادها بمسكن وحدها ، كما تذكر عن الأمير يوسف قصصا مماثلة . وتتحدث عن امرأة ذات صلة بالأسرة المالكة كانت تخدم ذوى الأغراض الشائنة وذوات النفوس الضعيفة من رجال الأسرة ونساءها خدمات حقيرة .

وتتبع الكاتبة تطور المشاحنات التي كانت مستمرة بين سيدي حسن وأخيه سيدي يوسف ، وفي كل أفراسها ما يبعث عن الإعجاب بمسلك الأمير حسن الذي كان يرفع عن مقابلة إساءة أخيه بمثلها ، بل يبدى نحوه ما يكاد يبلغ الاستخفاف .

وقد بلغت هذه المشاحنات ذروتها في سنة ١٧٨٩ ، والكاتبة تصور نهايتها الأخيرة بوصفها للمكيدة التي دبرها يوسف لأخيه ، فقد ذهب

يوما الى أمه (للاحلومة) مظاهراً بالأسف الشديد على ما يثور بينه وبين أخيه الأكبر ، فترحت الأم فرحا شديداً بذلك التغير المفاجيء ودعت لولدها بالخير وسارعت إلى إيفاء رسوئها إلى ولدها الأكبر ليحضر إليها حتى يتم الصلح بينه وبين أخيه على يديها ، وكان شرط المقابلة أن يحضر الأميران وحدهما بغير اتباع ولا سلاح ، وهناك تقابل الأخوان وتعبا ثم تصافيا ، واقترح يوسف أن يحلفا على القرآن الشريف ألا يغدر أحدهما بالآخر . وقام يوسف فنادى بأحضر المصحف وكانت تلك علامة بينه وبين بعض عبيده الذين أكرمهم في الغرف المحاورة ، فناوئوه غدارته بدلا من المصحف ، واشتركوا معه في إفراغ طقاتهم في الأمير حسن المسكين حتى أصيب بإحدى عشرة طنقة ، وذهلت الأم ولم تستطيع أن تدافع عن ولدها ، وأصابها رصاصة في يدها وهي تحاول أن تدافع عنه ، وكان ذلك في بحر شهر يولييه سنة ١٧٩٠

ولما فرغ يوسف من جريمته الدنيئة خرج من القصر ، وعرج في طريقه على الشيخ (عبد الله بيه) شاه القصر فقتله لأنه كان يعرفه صديقا مخلصا لأخيه . وتبع بعد ذلك أعوان الأمير الثقيل فأهلك بعضهم ، ونجا منه البعض بأن التجأ إلى بعض الأقرباء من أفراد الأمانة . وكان مقتل الأمير حسن بمثابة إعلان للثورة والغوضى في البلاد كلها ، فصارت أرباض طرابلس ميدان كمر وفر بين أتباع الأمير القاتل وبين الباشا المسكين وولده الأوسط أحمد الضعيف ، واستمرت هذه القلاقل ثلاث سنوات مشحونة بالكيبات والغوضى والشجاعات ، وبلغ انفرج حداً جعل قناصل الدول الأوروبية يستعدون للخروج إلى بلادهم .

وفي يولييه سنة ١٧٩٣ جاءت الأخبار أن الدولة العثمانية فطنت آخر الأمر إلى الغوضى التي ضربت أطنابها في البلاد ، ورأت تلك فرصة تقتضيها لاسترجاع حكمها ، فأرسلت أسطولا مع القائد (علي بازون ؟) لطرد علي باشا انقرماني وأسرته وارجاع البلاد إلى حوزة الدولة العثمانية كما كانت قبل أن يستقل بها جد الأسرة في سنة ١٧٩١ ، ولم يلبث ذلك

الأسطول أن جاء وأعلن القبودان عزل الباشا ، فلم يجد المسكين إلا أن يدعو دعوة بائسة لجمع الشمل لمواجهة الكارثة التي تهدد الأسرة كلها ، غير أن ذلك لم يفده شيئا ، واستطاع القبودان أن يدخل المدينة في ٣٠ يولييه سنة ١٧٩٢ ، وخرج الباشا وهو مريض محمول على أكتاف خدمه حتى أركب على فرس وهو لا يكاد يقوى على الركوب ، وأغمى عليه في أثناء ذلك مرتين ، ثم سار خارجا من المدينة لا يبرى ماذا تخفى الأقدار لأمرته ، وأما أهله فقد خرجوا من القصر واختفوا بين أهل المدينة أو أرباضها .

وكانت الكتابة من بين أفراد أسرة القنصل الانجليزي التي رحلت مرعة عن المدينة وبارحت ميناءها في ٢٧ أغسطس من عام ١٧٨٣ ، غير أن الأمر لم يستمر عند ذلك الحد ، فإن الحاكم التركي أخذ يعف بأهل المدينة ، وكان من بينهم المسكين (استر) سميرة الباشا ، وكان من نصيبها السجن المظلم في القصر ، وكانت السلسلة التي ربطت فيها قصيرة تحز في قدمها حتى أن ابنها ذهب في المدينة يلتمس قطعة من سلسلة ليطيل بها رباط أمه البائسة ، وكانت استر ضحية لما حسبه الباشا التركي عندها من الأموال .

واستمر يوسف في موضعه خارج المدينة ليحارب الباشا العثماني ، وما زال يناوشه حتى آتته الأمداد من والي تونس (حمودة باشا) فاستطاع معا أن يهزما الباشا التركي ويعيدا الأسرة القرمانية إلى حكم طرابلس ، وكان على باشا أضعف من أن يرضى بالعودة إلى الحكم كما أن ولده أحمد كان أضعف من أن يقف في وجه أخيه الأصغر المتمرد ، واستطاع آخر الأمر الأمير يوسف أن يتولى على الحكم ليكون آخر من حكم طرابلس من الأسرة القرمانية .

وكانت الضربة التي قضت على أساس هذه الدولة ضربة فذة أتت من جانب لم يكن أحد يتوقعه ، فقد نشبت الحرب بين يوسف باشا وبين فولة أميركا الناشئة ، ولأول مرة في تاريخ البحرية الطرابلسية حطم الأسطول تحطيا تاما ، فكانت تلك ضربة قاضية على هبة الباشا الأخير ، ولم يلبث ملكه أن تحطم في عام ١٨٣٥

وبعد فنتس أدري إذا كان الفقيد الكريم الأستاذ عبد الحميد العبادي
قد اطلع على هذا الكتاب القديم فيما اطلع عليه من قراءاته الواسعة ، ولكني
أحسب أنه لو كان قرأه لوجد فيه متعة كبرى ، وأنى لأشعر بأعظم الارتياح
أن أكتب هذا الفصل في مناسبة ذكره اعترافاً مني بما كان لفقيد الكريم
من مزايا العلم وغزوة الفضل وسعة الاطلاع .